

الشخصية من منظور التحليل النفسي

عبد الرحيم تمحري
باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

الملخص التنفيذي:

يعرض الباحث في هذه الدراسة رؤية التحليل النفسي لمفهوم الشخصية من خلال نظريتين: النظرية الأولى في الشخصية التي تتجسد بقوة في كتاب: "تفسير الأحلام" الذي يتحدث عن علاقة ما قبل الوعي بمرحلة الوعي. أما النظرية الثانية فتتجلى في كتاب: "الأنا والهو"، التي تقوم على ثلاثة أنساق هي: الهو والأنا والأنا الأعلى، وأدوارها في بنية الشخصية. وخلص من هذا، أن فشل دور الأنا في حفظ الذات والشخصية إنما ينبجُم عنه القلق والإحباط. كما لا تخلو هذه الدراسة من فتح أفق نقدي فعّال لنظرية التحليل النفسي مع "إريكسون" و"لودفيج بنسفانجي".

بمقدار ما تحيل الذات الظاهرية على التنظيم لكلّ الكيفيات التي يرى بها الشخص ذاته عامة، وعلى مجموع الإدراكات التي يقوم بها الشخص على ذاته، ويكون له بها وعي خاص عند روجرز؛ فإنّ جزءاً من الشخص ذاته يظل غير معروف أو على الأقل محجوباً أو مشوهاً بلعبة من الميكانيزمات الدفاعية. ولذلك فمفهوم الذات يتضمن بالمثل - وبشكل مفارق - جزءاً لا واعياً يُسمى بالذات اللاظاهرة، والتي تشكل بالأساس موضوعاً للدراسة خاصاً بالمقاربة التحليلية النفسية¹.

وسواء تعلق الأمر بالذات أو الهوية أو الأنا*، فإننا مع التحليل النفسي نوجد في عمق موضوع الشخصية. ومن المعلوم أنّ مفهوم الشخصية يحتل مكانة جد متميزة داخل التحليل النفسي سواء كطريقة علاجية حيث العلاقة بين شخص المحلل وشخص المحلل، أو كسيكولوجيا حيث الاهتمام يُعطى في المقام الأول لتاريخ الفرد، وداخل هذا التاريخ للعلاقات بين - الشخصية.

لدى المحللين النفسيين عامة، هناك شبه اتفاق على أنّ الشخصية هي ذلك التنظيم الدينامي داخل الفرد، والذي يعمل على تأمين مطابقة الفرد مع محيطه. كما أنّ التحليل النفسي من السيكولوجيات القليلة التي اهتمت ببنية الشخصية أو ما يعرف بالجهاز النفسي. وإذا تمّ الاقتصار على المؤسس الأول أي فرويد، فمن المعروف أنه قدّم نظريتين للجهاز النفسي: الأولى عام 1900 والثانية عام 1923.

1- النظرية الأولى للشخصية لدى فرويد:

عرض فرويد نظريته الأولى في الجهاز النفسي في نهاية كتابه: "تأويل الأحلام" عام 1900، حيث صاغ بشكل تخيلي جهازاً نفسياً يعود إليه تنظيم التوترات. ويتشكل هذا الجهاز من نسقين هما اللاوعي، وما قبل الوعي، وبينهما توجد الرقابة التي هي أشبه بانكسار الضوء عندما يمرّ الضوء من مجال إلى آخر. يمثل نسق اللاوعي قاعدة للدوافع الفطرية والرغبات والذكريات المكبوتة، تتمتع "السيرورات الأولية" التي يتحكم فيها مبدأ اللذة بطاقة متحركة تنحو نحو التفرغ، كما أنها تتحول أو تتكثف حول الموضوعات والأفكار دون مراعاة لمعايير التفكير العقلاني أو الموضوعي (كما هو الحال في الأحلام).

¹ - René l'Ecuyer, opt. cit, pp. 36-37.

* سنرى عند تحديد المفاهيم، وخاصة الهوية وتمييزها عن الذات، حضور هذه المفاهيم الثلاثة عند مؤسس التحليل النفسي سيغموند فرويد، ولهذا فذكرها هنا ليس مجاناً. وربطها بالشخصية أكثر من دال.

أما نسق ما قبل الوعي فهو قاعدة للعمليات العقلية المعروفة في علم النفس، وللقدره على التعلم وللمكتسبات الناتجة عن ذلك التعلم، وتتميز "السيرورات الثانوية" -التي هي في الآن نفسه كامنة ومهيأة- بكونها محكومة بمبدأ الواقع. أما الطاقة الخاصة بهذا النسق فهي مرتبطة به. والعمليات المميزة له هي كبح الدافع، وإرجاء التفرغ، وتحقيق المطابقة مع الواقع.

المرور من اللاوعي إلى ما قبل الوعي تتحكم فيه الرقابة. وتصبح وظيفة هذا المرور هي إنجاز أو رفض عمليات الكبت، ما دام - أي ذلك المرور - معللاً بذلك الصدام بين النزعات المقبولة من لدن الذات الخاصة Sujet مع النزعات المكبوتة. في حين أنّ الوعي، هو جزء من الطاقة الحرّة التي هي في خدمة نسق ما قبل الوعي، ودوره هو تأمين التطابقات الأكثر تمايزاً، وفي حالات أخرى مقاومة التوترات المؤلمة التي تبرز عملية المراقبة.

ومن المعلوم أنّ فرويد يتصور النشاط النفسي كنشاط لا واعٍ أساساً، فالرغبات اللاواعية هي قلب وجودنا. وما من عملية عقلية إلا ولها أصلها في اللاوعي².

والمرور من ما قبل الوعي إلى الوعي هو كذلك خاضع للمراقبة. فقط وحده الوعي هو الذي يمكنه أن يحرر السيرورات العقلية من قبضة اللاوعي، وهذا في مناسبات جد قليلة.

نستمع إلى ما يقوله فرويد ذاته في كتابه "تفسير الأحلام" عن مكونات نظريته: "من الواجب أن نفترض أنّ اللاشعور هو الأساس العام للحياة النفسية. فاللاشعور* هو المجال الأكبر الذي يضم بين جوانبه المجال الشعوري الأصغر. فكل ما هو شعوري له مرحلة تمهيدية لا شعورية، بينما قد يتوقف اللاشعور عند هذه المرحلة ويكون له الحق مع ذلك في أن نسلم له بكل ماله من إمكانيات نفسية. فاللاشعور هو الواقع النفسي الحقيقي، وهو في طبيعته الباطنية نجعل عنه قدر ما نجعل عن حقيقة العالم الخارجي، والمعرفة به التي نتحصل لنا عن طريق معطيات الشعور هي معرفة ناقصة تماماً مثل المعرفة بالعالم الخارجي التي تجتمع لنا عن طريق أعضائنا الحسية"³.

² - Daniel Lagache, La Psychanalyse, Paris, PUF, 1979 (13è édition). PP: 33-35.

* هناك من يترجم Inconscient باللاشعور، والبعض الآخر باللاوعي (ونحن منهم). غير أنّ من المتخصصين في ترجمة أعمال فرويد من له تفسير لهذا الاختلاف في استعمال أحد المصطلحين، يستند فيه إلى فرويد نفسه، مثل جورج طرابيشي الذي يقول: "...لابد أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ لفظة Conscient بالأجنبية تعني في آن معاً الوعي والشعوري. وأن لفظة inconscient تعني في آن معاً اللاوعي واللاشعور. وهذا اللبس غير قائم في العربية ما دام المختصون قد جعلوا للمعنى الوصفي لفظاً هو الوعي واللاوعي وللمعنى النسقي لفظ آخر هو الشعور واللاشعور"، جورج طرابيشي هامش 5 ص 58 من ترجمة كتاب فرويد علم ما وراء النفس، بيروت دار الطليعة للطباعة والنشر 1979

³ - سيغmond فرويد تفسير الأحلام، ترجمة: د. عبد المنعم الخفني، القاهرة مكتبة مدبولي 1996، ص ص 679-680

"... وعندما أقول في "لاشعورنا" فإني أقصد إلى شيء معين، لأن ما نسميه كذلك لا يصادف الشيء نفسه الذي يقصد إليه الفلاسفة بلا شعورهم... واستخدام الفلاسفة للاسم نفسه ليس إلا للتتويه به كشيء مناقض للشعور وما يهدفون إليه ويثيرون حوله كل الجدل ويدافعون عنه بحماس شديد هو أنه إلى جوار العمليات النفسية الشعورية هناك كذلك عمليات أخرى لاشعورية"⁴.

"... وأرى أنّ الجديد الذي استخلصناه من تحليل التكوينات النفسية المرضية، وتأتي الأحلام في مقدمتها، هو أنّ اللاشعور ومن ثم كل ما هو نفسي، هو وظيفة يختص بها نظامان من الأنظمة النفسية كل منهما مستقل عن الآخر، وأنه يستوي ذلك في الحياة المرضية وفي الحياة السوية كذلك. وإذن فلدينا نوعان من اللاشعور لم يحدث أن مايز بينهما علماء النفس حتى الآن، وكلاهما بالمعنى المتعارف عليه في علم نفس لاشعوري، إلا أننا نرى في أحدهما - وهو الذي نطلق عليه اللاشعور - أنّه النظام المحجوب عن الشعور، وإن كان ذلك غير متحقق إلا بعد استيفاء عدد من الشروط المعينة. وربما تطلب الأمر أن تفرض الرقابة عليها مرة أخرى. إلا أنّ كل ذلك يتم بدون أي تدخل من اللاشعور (...). فقد تعلمنا أن نصف العلاقة بين النظامين كلاً منهما بالآخر وبين كليهما والشعور، وكأنها أنظمة تشغل فعلاً أمكنة، فقلنا إنّ النظام قبل الشعور على سد الطريق إلى الشعور، ولكنه أيضاً يتحكم في الطريق الموصلة إلى القدرة الحركية، وكذلك فإنّ له القدرة على إصدار طاقة شحن متحركة والتحكم فيها؛ وجزء من هذه الطاقة هو ما ألفنا معرفته في صورة الانتباه"⁵.

"والآن، أي دور يستبقيه تصورنا للشعور بعد أن جرّدناه من قدرته المطلقة التي كانت له في الفكر القديم، وكأنّ وجوده فيه يحجب أي وجود آخر لأي نظام عداه؟

إنّ كل ما صار له في تصورنا هو أنه عضو حسي منوط به إدراك الكيفيات النفسية ولا شيء سوى ذلك. ونحن طبقاً لما نراه من أفكار توجه محاولاتنا التخطيطية للجهاز النفسي، ليس بوسعنا إلا أن نعتبر الإدراك الشعوري وظيفة خاصة بنظام معين من الأنسب أن ندل عليه اختصاراً بالنظام (ش) (أي الشعور)⁶.

⁴- نفسه، ص 681-682

⁵- نفسه، ص 682

⁶- نفسه، ص 683

"ولن يكون بوسعنا أن نلم بمشكلات الشعور في كل تعددها إلا بتحليل العمليات الفكرية للهستيريا، ونستشعر من هذه العمليات بأن الانتقال من الشحن قبل الشعوري إلى الشعوري يرتبط برقابة تشبه تلك الموجودة بين النظامين اللاشعوري وما قبل الشعوري"⁷.

لكن ما بين 1910 و1920، عمل فرويد على استخراج عناصر لنظرية في "الأنا"، فتبين له نقص النموذج الأول خاصة على ضوء دفاع الأنا وعمليات الكبت. فالنظرية الأولى عملت على التقاء اللاوعي مع المكبوت، والحال أن التفكير أظهر أن عملية الكبت هي دورها لاواعية، ومن ثم، فإن الصراع الأساسي لا يمكن التعبير عنه بمصطلحات: نسق ما قبل الوعي -الوعي ضد نسق اللاوعي، لأن الأنا بدوره يمكنه أن يكون واعياً أو ما قبل -واع أو أيضاً لا واعياً. ولذا كان لا بدّ من التحول إلى نموذج آخر، نظرية أخرى للجهاز النفسي.

2- النظرية الثانية للشخصية لدى فرويد:

قدّم فرويد أول عرض لتصوره الثاني للجهاز النفسي في كتابه "الأنا والهو" وذلك سنة 1923. ويقوم هذا التصور على التمييز بين ثلاثة أنساق أو مناطق للشخصية هي: الهو والأنا والأنا الأعلى. وهذه التسميات إنما هي استعارية لا غير. مع أنّ التجربة الإكلينيكية أظهرت أنّ الوقائع النفسية المقابلة لها يمكن أن تقوم بإسقاطات على شخوص خاصة في الأحلام، وعلى سبيل المثال، فالقوى الدافعية للهو يمكن أن تصور بواسطة حيوان، وقوى القمع التي يعبر عنها الأنا الأعلى يمكن أن يتم إسقاطها على صورة حارس الأمن. لكن لا يمكن أن نجعل منها بأي حال كيانات قائمة بذاتها أو شخوصاً. لأنّ هذه التسميات تشير فقط إلى أنساق للمحفزات والفعل والتي تتقابل عادة فيما بينها داخل الصراع.

يمثل الهو الشكل الأصلي للجهاز النفسي كما يوجد في مرحلة ما قبل الولادة، ولدى المولود الجديد، والمادة الأولى لكل التمايزات اللاحقة. دينامياً، يتألف الهو من الدوافع الفطرية (العوانية، والجنسية) ومن الرغبات المكبوتة. أمّا اشتغاله فتحكمه السيرورة الأولية، وهذا يعني أنّ رغبات الهو منفلثة من مبدأ الواقع، فهي لا تعرف الزمان ولا العلاقات السببية والمنطقية، إنها فقط تخضع لمبدأ اللذة والألم. وسيكون من الخطأ اختزال الهو في دوافع بيولوجية. فهي وإن كان لها أن تستثمر في موضوعات واقعية أو رمزية، فإنها تقصد في الأعماق اللاواعية، موضوعات وأهدافاً غريبة عن الواقع، وبتعبير أدق استيهامية Phantasmatiques.

⁷- نفسه، ص ص 684-685

ينبغي ألا نخلط بين الأنا - وأحيان الضمير المتكلم Je في التحليل النفسي مع الأنا في علم النفس غير التحليلي. حسب فرويد، يتطور هذا الأنا من تمايز الجهاز النفسي في احتكاكه بالوقائع الخارجية بمثل ما يميز الهو باحتكاك الجسد مع الحاجات والانفعالات. يعتبر نشاط الأنا واعياً (الإدراك الخارجي، الإدراك الداخلي والسيرورات الفكرية)، وكذلك ما قبل - واعٍ، ولا واعياً (الميكانيزمات الدفاعية). أمّا ما يتحكم في بنية الأنا فهو مبدأ الواقع (الفكر الموضوعي المنشأ اجتماعياً، العقلاني واللغوي). فالأنا - وليس إلى الهو أو إلى الدوافع - يعود الدفاع عن الشخص الذاتي، وتطابقه مع محيطه، وحلّ الصراعات مع الواقع أو بين الرغبات المتعارضة. كما يراقب المنفذ إلى الوعي وإلى الحركة؛ ويؤمن "الوظيفة التركيبية" للشخصية.

يعتبر الأنا الأعلى تحويلاً للأنا بواسطة استدخال القوى القمعية التي واجهها الفرد خلال نموه. ويظهر نشاطه في حالة الصراع مع الأنا، من خلال نمو الانفعالات التي ترتبط بالوعي الأخلاقي وأساساً الشعور بالذنب. يتشكل الأنا الأعلى من توحد الطفل مع الوالدين المؤتمنين Idéalisés، وخاصة الوالد من الجنس نفسه. ولهذا فالفكرة القائلة بوجود الأنا الأعلى قبل الفرد ذاته صحيحة. ينبغي التمييز بين مثال الأنا الذي يعني ما ينبغي أن يكون عليه الفرد ليستجيب لمتطلبات الأنا الأعلى، والأنا المثالي الذي يعني ما ينتظر الفرد من ذاته ليستجيب لمتطلبات وهم طفولي للقدرة الكليّة Omnipotence، وللتوحد الأولي مع أحد الوالدين الأكثر قوة، وعادة ما يكون من جنس الفرد نفسه⁸.

ولنستمع مرّة ثانية إلى صوت فرويد متحدثاً عن نظريته الثانية أو نسقه الثاني، حيث يقول: "حصلنا على ما نعرفه عن الجهاز النفسي من دراسة التطور الفردي للوجود الإنساني. وقد أطلقنا على أقدم هذه المناطق (أو المنظمات) النفسية اسم الهو ومضمونه كل ما هو موروث، كل ما يظهر عند الميلاد، كل ما هو مثبت بالجيلة، لذا فهو يتألف أولاً وقبل كل شيء من الميول الغريزية التي تصدر عن التنظيم الجسمي. وتجد ههنا أول تعبير نفسي عن ذاتها في صور نجهلها. وبتأثير العالم الخارجي الواقعي المحيط بنا، يطرأ على جزء من الهو تغيير خاص. فما كان في الأصل طبقة لحائية مزودة بأعضاء لتلقي المنبهات وبأجهزة للوقاية من الإثارة، ينشأ عنه تنظيم خاص يتوسط الهو والعالم الخارجي. وهذا القسم من حياتنا النفسية نسميه الأنا.

... وكراسب من رواسب فترة الطفولة التي يعيش فيها الإنسان الناشئ معتمداً على والديه*، تتكون في الأنا منظمة خاصة يمتد فيها تأثير الوالدين هذا ويطلق عليها اسم الأنا الأعلى.

⁸ - Daniel Lagache, La psychanalyse, opt.cit. pp: 35-37.

* ليس التحليل النفسي منعزلاً عن المجتمع ومحدوداً في المكون البيولوجي فقط كما يتوهم البعض، بل هو منغرس في عمق المجتمع ومشاكله وصعوباته والظلم الذي ينزله على الأفراد الضعاف من الأطفال والنساء. فهو لما يتحدث عن أحداث الطفولة الماضية وتأثير "الأبوين ومن يقوم مقامهما في الأطوار

وبقدر ما ينفصل هذا الأنا الأعلى عن الأنا أو يعارضه، فهو يكون قوة ثالثة ينبغي على الأنا أن يعمل لها حسابها. ومن ثمة يكون الأنا مصيباً في فعله إذا أشبع مطالب الهو والأنا الأعلى والواقع في نفس الآن عندما يتمكن من التوفيق بين مقتضياتها المتباينة"⁹.

"يتألف لبّ وجودنا من "الهو" المعتم الذي لا علاقة مباشرة له بالعالم الخارجي... وفي هذا الهو، تعمل الغرائز العضوية التي تتكون ذاتها من امتزاج قوتين أوليتين (هما) الإروس والتدمير بنسب متفاوتة... وهم هذه الغرائز الأول هو الحصول على الإشباع الذي تترقبه عن طريق تغييرات الأعضاء بمساعدة موضوعات العالم الخارجي. وإشباع الغرائز إشباعاً عاجلاً مطلقاً كما يشتهي الهو، يفضي إلى صراع خطير مع العالم الخارجي ويؤدي إلى الدمار. ولا يحفل الهو بما يكفل المستقبل ولا يعتوره القلق، ولا يخضع لما يفرضه المنطق من قيود النقد، فالهو يخضع لمبدأ اللذة الذي لا مفر منه.

أما المنظمة النفسية الأخرى، نعني الأنا، فقد تكوّنت من الطبقة اللحائية للهو، فكانت متصلة اتصالاً مباشراً بالعالم الخارجي (الواقع)، حيث قد تمّ إعدادها لتلقي التنبيهات واستعادها. ويبدأ الأنا من الإدراك الحسي الشعوري، ثم يوسع نطاقه ويمدّه إلى طبقات أعمق فأعمق من الهو.

يصل الأنا إلى تقرير ما إذا كان ينبغي المضي في محاولة الإشباع أم إرجاؤها أم القضاء كليّة على مطلب الغريزة باعتباره* خطراً (مبدأ الواقع).

وكما أنّ الهو لا يستهدف إلا الحصول على اللذة، فإنّ الأنا لا يعنى إلا بتوفير الطمأنينة. فقد أخذ الأنا على عاتقه مهمة حفظ الذات، تلك المهمة التي يبدو أنّ الهو قد أهملها. ويستخدم أحاسيس القلق نذيراً بالأخطار التي تهدد تكامله، والأخطار التي تتهدد الأنا والتي يتعين عليه مقاومتها في محيط من القوى الآلية الطاغية تأتي أولاً من الواقع الخارجي، ولكنها لا تقتصر عليه. فالهو ذاته مصدر أخطار مماثلة، وبذلك يحارب الأنا في جبهتين: فعليه أن يدافع عن وجوده ضد عالم خارجي يهدده بالإفناء، وضد عالم داخلي يرهقه بالمطالب"¹⁰.

اللاحقة كالمعلمين والشخصيات البارزة في الحياة العامة والمثل العليا الموقرة في المجتمع"، يكشف على أنّ التحليل النفسي كسيكولوجيا اجتماعية علائقية تلعب فيها الأسرة والمدرسة أدواراً حاسمة.

دافعنا عن هذه الفكرة من خلال اطلاعنا على عمليين لفرويد هما:

- سيكولوجيا الجماهير

- المدخل إلى التحليل النفسي

⁹- سيغmond فرويد، الموجز في التحليل النفسي، مرجع مذكور، ص ص 16-17

* غيرنا عبارة "بمثابته" بعبارة "باعتباره".

¹⁰- سيغmond فرويد، الموجز في التحليل النفسي، مرجع مذكور، ص ص 73-76

وعن العلاقة بين النسق الأول والنسق الثاني، لنستمع إلى فرويد كيف يربط بينهما:

"يرتبط فعل الشعور قبل كل شيء بالمدركات التي تتلقاها أعضاء حدسنا من العالم الخارجي. فهو إذن، من الناحية الطوبوغرافية، ظاهرة تحدث في اللحاء الخارجي للأنا.

وأبسط تصوير للأمور هو أن نفترض أنّ العمليات الشعورية موجودة عند سطح الأنا وكل شيء عداها في الأنا لا شعوري. والواقع أنّ الأحوال السائدة عند الحيوان لا تخرج عن هذا، وتتعدّد الأمور عند الإنسان لأنّ العمليات الداخلية في الأنا يمكنها أيضاً أن تكتسب صفة الشعور، ومردّد هذا إلى عمل اللغة، فهي تربط مضمونات الأنا بآثار الذاكرة المتصلة بالإدراكات البصرية ولاسيما من الداخل أيضاً، فيمكن للعمليات الداخلية كالتصورات والعمليات الفكرية أن تصبح شعورية.

أما داخل الأنا الذي يشتمل في المحل الأول على العمليات الفكرية، فكيفيته هي ما قبل الشعور، ويتميز الأنا وحده بهذه الكيفية. ولكن لا يصح القول إنّ ارتباط آثار الذاكرة باللغة شرط لوجود الحالة قبل الشعورية، بل إنّ هذه لا تتوقف عليه، وإن كان شرط الكلام دليلاً قاطعاً على أنّ العملية ذات طبيعة قبل شعورية"¹¹.

واللاشعور هو الكيفية الوحيدة المهيمنة في الهو، فالهو واللاشعور متصلان اتصالاً وثيقاً، شأن اتصال الأنا بما قبل الشعور. بل إنّ الرابطة هنا أوثق. والآن قد قطعنا بالرأي في انقسام الجهاز النفسي انقساماً طوبوغرافياً** إلى أنا وهو، وهو ما يصحبه من التمييز المقابل له بين الكيفية قبل الشعورية واللاشعورية، وقررنا أنّ هذه الكيفية ليست إلا علامة مميزة، وأنها ليست جوهره.

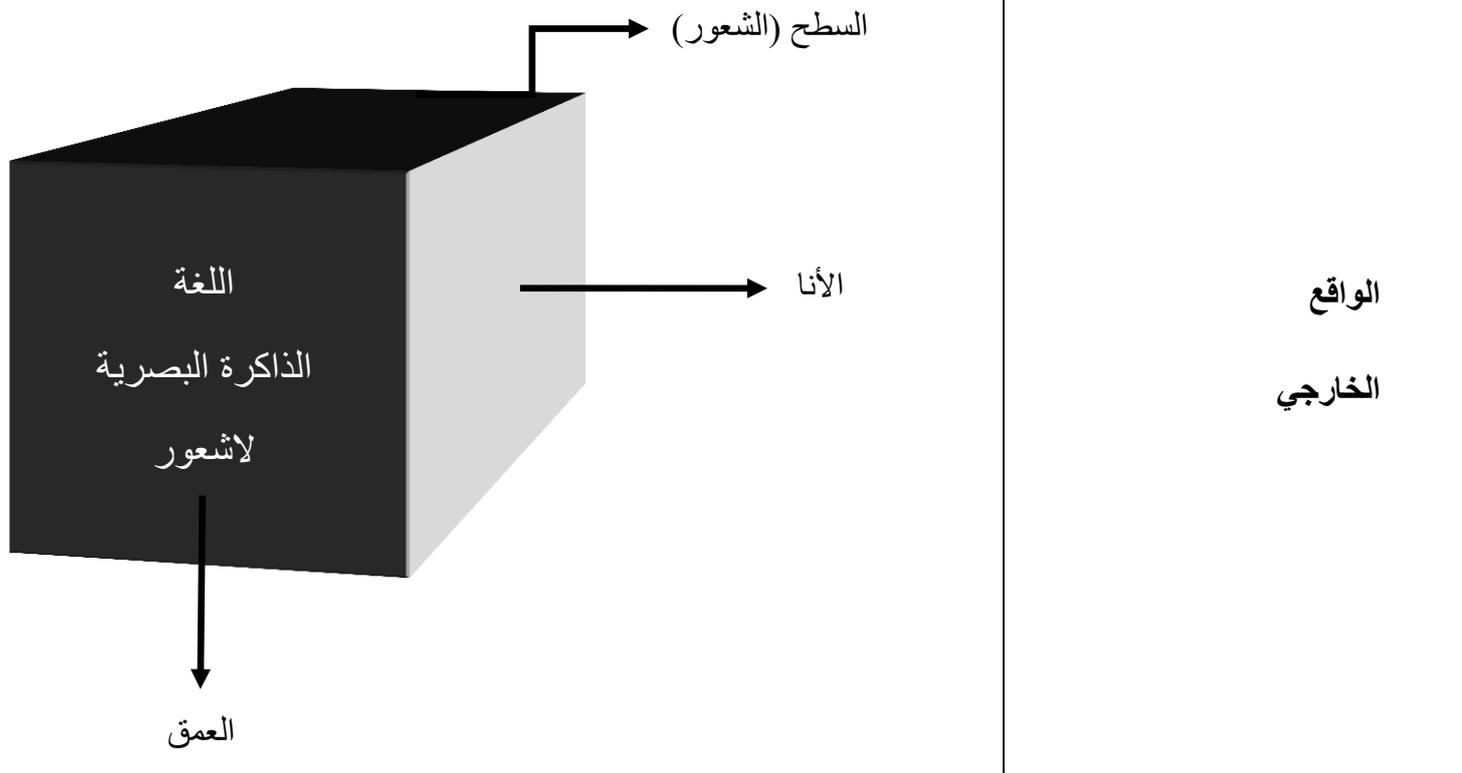
"ومع ذلك فنحن نؤمن بالقول إنّ التمييز بين الحالة اللاشعورية والحالة قبل الشعورية قائم أيضاً في علاقات دينامية معينة، ممّا يفسّر كيف يمكن للوحدة منهما أن تتحول إلى الأخرى، سواء أحدث هذا تلقائياً أم بمعونتنا. غير أنّ ثمة حقيقة جديدة وراء كلّ هذه الشكوك ندين باكتشافها لأبحاث التحليل النفسي. فقد عرفنا أنّ العمليات التي تقع في اللاشعور أو في الهو تخضع لقوانين مغايرة للقوانين السارية في الأنا قبل الشعورية. وتُسمى هذه القوانين في جملتها بالعمليات الأولية، تمييزاً لها عن العمليات الثانوية التي تسيطر على الظواهر التي تجري فيما قبل الشعور أو في الأنا"¹².

¹¹ - سيغموند فرويد، الموجز في التحليل النفسي، مرجع مذکور ص ص 31-32، أما الرسم التخطيطي أسفله فهو من عندنا.

** الطوبوغرافيا في التحليل النفسي اصطلاح يشير إلى تقسيم الجهاز النفسي إلى مناطق أو منظمات لا تتضمن تحديداً تشرحياً في المخ.

¹² - المرجع نفسه، ص ص 33-34.

بعد أن عرض علينا فرويد نسقه الأول للجهاز النفسي، ونسقه الثاني والعلاقة بينهما، نسطر على أنه جاء بنسقه هذا ليبين منشأ الأعصبة (جمع عصاب) والأمراض النفسية الأخرى التي تصيب الفرد كالذهان. يقول: "فمن اليسير علينا إذن أن نسلم بأن الحالات المرضية للأنا، التي غالباً ما يزيد فيها اقتراباً من الهو، تقوم على تعطل العلاقة بالعالم الخارجي أو انقطاعها، فإما أن يكون الواقع قد غداً أمراً مؤلماً لا يُطاق، أو أن تكون الحوافز قد عززت تعزيراً هائلاً لوجود المطالب المتنافسة للهو والعالم الخارجي".¹³



وكما هو ملاحظ فإنّ الأنا هو الذي يوجه ويراقب تطابقات الفرد مع المحيط والتوترات التي تحفزها، وتحقق إمكانياته. وداخل هذه العملية، لا يكون الأنا محدوداً بغياب أو نقص بعض استعداداته فقط، وإنما أيضاً بتسللات من الهو والأنا الأعلى والتي تعوقه عن الحركة، أو تحول حركته إلى اتجاه مغاير للمعنى الذي يريده.¹⁴

¹³ - نفسه، ص 77

¹⁴ - Daniel Lagache, Ibid, p: 37.

3- أهمية الهو وانحسار الأنا في نظرية الشخصية لدى فرويد:

هذه وضعية غير مريحة للأنا؛ لأنّ دوره هو حل المشاكل، والتفكير، وإعداد الخطط ليحمي ذاته في الوقت نفسه الذي يحمي فيه الليبدو؛ ولأنّه يماثل تلك السلطة التنفيذية التي تتوسط الغرائز والعالم الخارجي، إذ يحصل له مراراً ألاّ يحقق ذلك التطابق الصعب المنشود. وهذه المهمة الصعبة قد توقعه في اضطرابات، فتحت تأثير الإحباط والصراعات، ينهار الأنا ويقع في أزمة القلق، هذه الأزمة، إذا طالت من دون علاج، ستتسبب في شكل ما من أشكال السلوك العصابي. ولقد قال فرويد إنّ "القلق هو ألف ياء العصاب"¹⁵.

من المعروف أنّ التصور المفتاح في التحليل النفسي الفرويدي هو: "السيرورات الأولية"، والتي تعني كلّ ما هو غريزي، ومرتكز حول ذاته بشكل أعمى، وما يطلب الإشباع دون إرجاء، وما هو لا واعٍ فالليبدو يريد ما يريده، ويرفض أن يتوافق مع المجتمع، والمجتمع يفرض عبر وساطة الوالدين سلوكاً "سليماً". وهنا تتدخل "السيرورات الثانوية" والتي تعني كلّ ما هو عقلائي ومراقب وراشد. ومهمتها هي إشباع الليبدو بطريقة عقلانية ومقبولة. لكنّ هذه المهمة لا يمكن أن تنجز من دون تدخل المساعدة الهامة للقمع.

إلا أنّ إحدى مصاعب التحليل النفسي الفرويدي تظهر في كون هذه الوضعية غير المريحة التي يوجد فيها الأنا، والمهمة الصعبة التي عليه إنجازها وهو يواجه ثلاثة مستبدين أشداء هم: الهو والأنا الأعلى والواقع الخارجي، لا تقتصر على الطفل. إنها تشمل الراشد كذلك، فهو ليس بمنجاة من سيادة السيرورات الأولية. والأخطر من ذلك "أن يصرح فرويد بنوع من التأكيد بأنّ "الأنا لا يملك الطاقة الخاصة به"، فهو لا يوجد إلا بعد أن يستعير الطاقة من الليبدو حتى يتمكن من مساندة السيرورات الثانوية التي تشكل الأنا"¹⁶.

ويرى ألبورت أنّ هذه هي نقطة الضعف في المذهب الفرويدي والتي تباينت بصدها المواقف بين غير الراضي عنها وبين مؤولها وبين الحاكمين على فرويد بنهايته قبل إتمامه "علم نفس الذات" الخاص به، وبين الذين أزالوا هذه النقطة من اهتمامهم والاستعاضة عنها بـ "علم نفس الذات غير الفرويدية" كما هو الحال لدى رابابورت D. Rapaport، وإريكسون E. Erikson، وكريس E. Kris.¹⁷

¹⁵- Gordon W. Allport, Structure et développement de la personnalité, Traduction par: Micheline – Gabrielle Brouilhet et Philippe Muller, Suisse, Delachaux et Nieslté, 1970, p: 136.

¹⁶- Daniel Lagache, la psychanalyse, opt. cit. p: 138.

¹⁷- Ibid, même page.

هؤلاء الأخيرون يمثلون التيار الذي يصطلح عليه بالتحليل النفسي المجدد، والذي اختص بعدة مميزات من أهمها مراجعة مفهوم الأنا في التصور الفرويدي، وإقحام المحيط الاجتماعي بمفهومه الشامل الذي يتجاوز بكثير مفهوم الواقع الخارجي لدى فرويد. ويعتبر إريكسون أحد أبرز ممثلي ذلك التيار.

4- مراجعة الأنا وإقحام المحيط:

اهتم إريكسون بالبحث في مفهوم الهوية، وعمل على التجديد سواء في هذا المفهوم أو في مجال التحليل النفسي، وهو بذلك يكون قد تجاوز حتى بعض المفاهيم المستعملة سواء في علم نفس الذات (كالذات) أو في التحليل النفسي (كالأنا). يقول: "في معناها العام، توحى الهوية بأكثر مما اعتاد كثير من الباحثين على تسميته بالذات، سواء في شكل مفهوم للذات (جورج هيربرت ميد) أو نسق للذات (هاري سوليفان) أو تجربة الذات (شيلدر، فيدرن)"¹⁸. ولن يستعمل إريكسون الأنا كما يستعمله التحليل النفسي الفرويدي، بل يختار أن يبقى أميناً لمفهوم الهوية الذي نظم البحث فيه مع ربطه بالأنا، وأن يستعمل مفهوم "هوية الأنا" الذي يعتبره "أكثر قرباً من الواقع الاجتماعي المتحرك، على اعتبار أنّ مهمته ستكون هي اختبار وتصنيف وإدماج صور الذات المشتقة من الأزمات النفسية - الاجتماعية لمرحلة الطفولة طمعاً في الأمل الذي يتيح المناخ الإيديولوجي لمرحلة الشباب. فهوية الأنا ستكون مطبوعة بذلك الإحساس المنتهي، ولكن القابل دوماً للمراجعة، مراجعة واقع الذات داخل الواقع الاجتماعي"¹⁹.

ذكر هوية الأنا في السياق مع الذات يفرض إقامة تمايزات بينها منعاً لكل تداخل وخط. وهو ما تنبه إليه إريكسون وسعى إلى فحصه بشكل جذري. إذا كان الأنا منطقة للتنظيم المركزي، لا واعية في جزء منها، فإنه في شكل مرحلة من مراحل الحياة، يحسب مع ذات متغيرة - في الفرد - تسعى إلى الاتحاد مع الذوات الأخرى - لدى الفرد نفسه - سواء كانت ماضية أو مستقبلية. ولتوضيح ذلك ينبغي أن نفهم هذا المثال التطبيقي: فالأنا الجسمي يمثل هذا الجزء من الذات الذي تمّ الحصول عليه عبر تجربة الجسم والذي يمكن تسميته بالذات الجسمية²⁰.

وبتعبير آخر، هناك أنا واحد داخل الفرد، ولكن هناك ذوات متعددة ومتغيرة *des sois*، وهذا التفسير أقرب إلى ما قاله وليم جيمس عن الذات *Soi* في تعريف لها: بأنها تعبير عن كل ما يملكه الفرد: أفكاره،

¹⁸ - Erik H. Erikson, Adolescence et Crise – La quête de l'identité, Traduit par: Joseph Nass et Claude Louis – Combet, Paris, Flammarion, 1972, p: 222.

¹⁹ - *ibid*, p: 224.

²⁰ - *ibid*. même page.

شواهد، زوجته، أولاده، رصيده في البنك، بيته... إلخ. وهذه الممتلكات ليست قارة ونهائية، بل هي متغيرة بتغير ظروف الفرد ذاته، إلا أنّ ما يوحدّها ويجمعها ويعيظها التماسك هو ما عبر عنه إريكسون بـ "هوية الأنا" التي يقصد بها إريكسون "ذلك الجانب - من شخصية الفرد- الذي يشمل الصور والأدوار"²¹. أمّا هويّة الذات "فتنبثق من تلك التجارب التي تفرض على ذوات مضطربة، أن تندمج بنجاح داخل مجموعة من الأدوار التي تؤمن لها الاعتراف الاجتماعي"²²، إلا أنّ هويّة الأنا أهم وأقوى لأنها تتعلق بسلطة تركيبية للأنا على ضوء وظيفته النفسية الاجتماعية المركزية، بخلاف هويّة الذات التي تبقى في حدود إدماج صور الذات وصور الأدوار لدى الأفراد.

هكذا يصل بناء إريكسون إلى هذا التحديد الإجرائي لهوية الأنا باعتبارها "نتاج لوظيفة التركيب لإحدى حدود الأنا أي المحيط كواقع اجتماعي ينتقل إلى الفرد (الطفل) عبر تعاقب الأزمات. وفي هذا السياق، فالهويّة تفرض أن يعترف بها كأهم تحقق للأنا لدى المراهق، لأنها تعمل في الوقت نفسه على احتواء الهو ما قبل البلوغ، وموازنة الأنا الأعلى بالتخفيف من مثال الأنا، وكلّ هذا على ضوء مستقبل يمكن التنبؤ به، ومُبين بتصور إيديولوجي معين للعالم"²³. هذا عن هوية الأنا، أمّا عن المحيط فيرى إريكسون أنّ التوجه البيولوجي للتحليل النفسي هو المسؤول عن هذه الرؤية البيولوجية في مفهومة المحيط الاجتماعي، "فكثيرة هي نصوص التحليل النفسي التي تستعمل مصطلحات "العالم الخارجي" أو "المحيط" لتشير بها إلى منطقة غير مكتشفة يقال إنّها هناك في الخارج لسبب وحيد هو أنها لا توجد في الداخل، أي داخل جلد جسم الفرد أو داخل نسقه النفسي أو داخل ذاته بالمعنى الواسع لكلمة ذات"²⁴.

يتصور "العالم الخارجي" أحياناً كمؤامرة من الواقع ضد عالم غرائز ورغبات العضوية الطفلية، وأحياناً كواقع مختلف ومقلق يمثله وجود الآخرين. لكن الأدهى من ذلك أن نوجد باستمرار أمام بقايا من التجميعات Juxtapositions المعيقة، والتي كانت ضرورية في زمانها، بل وخصبة، لأنها كانت تعبر عن واقع متطلبات اجتماعية ذات نزعة مختلفة ومناقفة بإمكانها أن تسحق غريزية الراشد وتستغل غريزية الطفل.

أمّا النتيجة الضمنية التي يمكن أن نصل إليها هنا، وهي أنّ الأنا الفردي يمكنه أن يوجد ضد محيطه أو من دون محيطه الإنساني، وتعتبر نتيجة عبثية. لأنّ مسلمة شبه - بيولوجية كهاته، والتي تقول بوجود الفرد دون

²¹- Erik H. Erikson, Adolescence et Crise – La quête de l'identité, opt. Cit., p: 224.

²²- ibid. p: 225.

²³- ibid. même page.

²⁴- ibid. p: 235.

وجود التنظيم الاجتماعي الذي يعيش فيه من شأنها أن تقصي نظرية التحليل النفسي حتى من صف الاكتشافات الغنية للبيولوجيا الحديثة.

يعتمد إريكسون على إحدى أطروحات هاينز هارتمان* Heinz Hartman في اعتبار المحيط لتبرير الجديد الذي أتى به. فهذا الأخير يصرّح بأنّ الطفل الإنساني يولد وهو يحمل قابلية للتوافق مع محيط ملائم بدرجة متوسطة. وهذا يتضمن صياغة بيولوجية دقيقة للفرد وكذلك صياغة سوسولوجية له. لأنّه مهما بلغ امتياز العلاقة التي تنسجها الأم مع طفلها، فإنها لا تكفي وحدها لتحقيق هذا الوسط المعقد والمستحيل الإمساك به، والذي لا يتيح للطفل العيش فقط، وإنما كذلك تطوير طاقات نموه وأصالته. فمدرسة الحياة تتطلب باستمرار إعادة تطابق دائم بيولوجياً وتاريخياً وتقنياً... وهذه القابلية للتوافق لدى الطفل - بما فيها نزعه إلى النمو عبر مراحل فوق تكوينية - إنّما تتم من خلال أزمنة نفسية اجتماعية متعددة، ولا تستدعي محيطاً قاعدياً، بل سلسلة من المحيطات الملائمة²⁵.

وينتهي إريكسون إلى هذه النتيجة: "كلّ ما سبق - من أفكار - يجعل من التوافق الإنساني، والذي ينعت بالبيولوجي، مادة لمرحلة الحياة التي تتطور داخل التبعية التاريخية للمجموعة. وينبغي بالتالي على سوسولوجيا تحليلنفسية أن تشرع في التفكير في المحيط الإنساني، كمحاولة راسخة من الأجيال للمساهمة في هذا الجهد التنظيمي الذي يساعد على إدماج سلسلة من المحيطات الملائمة بدرجة متوسطة"²⁶.

وسنرى لاحقاً عند تحديدنا للمفاهيم الأساسية لهذا البحث، كيف أنّ المهمة التجديدية التي أخذها إريكسون على عاتقه في إدخال مفهوم المحيط الاجتماعي واعتباره في دراسته لهويّة الأنا والشخصية الإنسانية، استهدفت تغيير المنظور الأرتوذوكسي للتحليل النفسي، وذلك بإكماله بعلم النفس الاجتماعي²⁷.

ليس إريكسون ومدرسته هو التيار المجدد في التحليل النفسي من حيث تناوله للشخصية الإنسانية بالدراسة فحسب، بل هناك تيار آخر فينومينولوجي يمثله في سويسرا لودفيج بنسفانجر Ludwig

* والتي عبّر عنها في كتابه:

Heinz Hartman, EgoPsychology and the problem of adaptation, New york, International Universities Press, 1958.

²⁵- Erik H. Erikson, opt. Cit. p: 236.

²⁶- Erik H. Erikson, Adolescence et Crise – La quête de l'identité, opt. Cit. p: 237.

²⁷- ibid. p: 20.

Binswanger²⁸، وفي فرنسا، روجي موكتشيلي Roger Mucchielli²⁹. وجّه هذا التيار نقداً لتصور فرويد للشخصية، منه ما يشترك مع التيار النفسي الاجتماعي لإريكسون وأصحابه، ومنه ما يختلف. ويمكن أن نقدم على سبيل المثال ما كتبه بنسفانجر: "ينطلق التحليل النفسي من الشخصية ككل - فهو لا يقسم الشخصية إلى وظائف أو وقائع نفسية منعزلة- لكنه لا يعتبر المرض كدخيل غريب على الشخصية، بل كقطعة من الشخصية الحيّة ذاتها، قطعة في مد متواصل"³⁰. فالشخصية السوية بهذا المعنى لا توجد، لأنّ المرض جزء من السواء.

انطلق فرويد من الفكرية العلمية القائلة إنّ الإنسان كائن طبيعي Homo Natura لا يختلف عن باقي الكائنات الطبيعية الأخرى. ولهذا أزال فرويد عن الإنسان كلّ الأفكار الأخرى، وأخصّه بميزته الخاصة أي الدوافع. هذه الأخيرة لا يمكن أن يتمّ التخلي عنها في كل عمل كما يقول فرويد³¹.

ولعل تفسير هذا المنحى العلمي عند فرويد يوجد في اعتباره للسيكولوجيا كعلم طبيعي أي بيولوجيا، ولهذا يقول بنسفانجر: "إذا أردنا أن نفهم جيداً تفكير فرويد لا ينبغي أبداً أن ننطلق من السيكولوجيا - وأنا شخصياً ارتكبت هذا الخطأ لمدة طويلة - وإلا كنا ظالمين له، كما أننا سنصطدم كلّ مرّة بمفهوم ليس مطلقاً سيكولوجياً هو مفهوم "الجهاز النفسي" وبنائوه انطلاقاً من أنساق محددة، أحدها فوق الآخر، وبينهما علاقات دينامية واقتصادية. بل فقط نفهم فكر فرويد وكما يريد هو ذلك، انطلاقاً من البيولوجيا"³².

أمّا موكتشيلي فيلتقي مع بنسفانجر في نقده لفرويد في مجموعة من النقاط هي:

- الإنسان الطبيعي: فمن المعروف أنّ فرويد قد أزاح عن الإنسان ككائن روحي، وألحق بالإنسان ثالث إهانة نرجسية في تاريخها تتعلق بالأنا، بعد الإهانة الكوسمولوجية التي أحدثها كوبرنيك، والإهانة البيولوجية التي أحدثها دارون³³.

²⁸ - Ludwig Binswanger, Discours, parcours et Freud – Analyse existentielle, psychiatrie clinique et psychanalyse, Traduction de: Roger Lewinter, Paris, Gallimard, 1970.

²⁹ - Roger Mucchielli, Analyse existentielle et psychothérapie phénoméno-structurale, Bruxellesn Charles Dessard Editeur, 1967.

³⁰ - Ludwig Binswanger, p. 134.

³¹ - Ludwig Binswanger, Discours, parcours et Freud, opt. Cit., p. 202.

³² - ibid, p. 188.

³³ - Roger Mucchielli, opt. cit. pp. 16-17.

- الأنا: إنّ التحليل النفسي ذو صلة بالانتحار، إنه قتل للأنا، وهل يمكن لسيكولوجيا مؤسسة على موت الأنا أن تستحق اسمها؟ إنّ الإنسان بالنسبة إلى فرويد ليس أكثر من "هو" نفسي، مجهول، ولا واع، على رأسه "أنا" تطور من نواة نسق لا واع هو "الهو" ليمثل العالم الخارجي، والواقع³⁴.

- إنّ كل هذه الانتقادات جعلتنا نعي بضرورة أخذ ثقل المحيط الخارجي بالمعنى الفيزيائي والطبيعي والاجتماعي والعلائقي في الاعتبار عند دراسة الشخصية الإنسانية ودراسة أساس هذه الشخصية أي الهوية. "لأنّ نمط الاشتغال النفسي الذي نعبر عنه بالشخصية يتموقع داخل بنية عريضة تشتمل الأنا والعالم في وحدة وظيفية ثنائية القطب هي: (بنية الأنا - العالم)، وهذا ما يُعرف بالنظرية العلائقية للشخصية ولحاجياتها"³⁵ كما يقول جوزف نوتان. ولأنّ الخاصية الأخرى لنمط الاشتغال النفسي الذي نسميه الشخصية تكمن "في الوحدة والهوية عبر التغيير والزمان. ذلك أنّه مهما كانت قوة وشدة التغييرات، فإنّ في داخل الحياة النفسية الشخصية "مقاومة" للتغيير، ونزعة إلى التماسك مع الذات، (...) فهوية الشخصية كمحتوى نفسي - الآراء والاجتهادات، والانفعالات، والسلوك بشكل عام- أهم من الهوية الفيزيائية الظاهرة - أي تلك التي تتصل بالجسم"³⁶. لكن هذا لا يعني بأي حال أنّ الهوية جوهر معزول ومتعالٍ لا يطاله أي تحول أو تبدل، لأنّ محرك الهوية هو التحول الذي يطراً عليها. "فالتحول *Altération* - كما يكتب جاك أردوانو- هو السيرورة التي بمقتضاها تتغير الذات الخاصة (تصبح آخر)، دون أن تفقد هويتها مع ذلك من خلال التأثيرات التي تمارس عليه من لدن آخر أو آخرين، والتي يمكن للذات أن تدرك تلك التأثيرات باعتبارها في الآن ذاته سلبية أو إيجابية"³⁷. فكل ذات خاصة تتموقع داخل ثنائية قطبية أو بالأحرى داخل جدلية: الهوية - التحول، بما تحمله من تمزقات وجروح نفسية وعمليات مختلفة للقلق النفسي والمقاومات التي تستدعيها. فالذات والآخرين - حتى لا نتكلم عن آخر مفرد ووحيد- يتشكلان بشكل واقعي وتفاعلي وتبادلي ولكن من دون توازن. واكتشاف الآخر الذي هو غريب عني في داخلي، أمر جوهرى أو بالأصح أساسي، لأنني لا أكون أنا ذاتي إلا بوعي بتعددي وانقساماتي كما يضيف أردوانو. فلا هوية من دون تغيير، ولا ذات من دون غير، بل إنّ قوام تطور الذات هو أمنيتها أن تصير آخر، لكن دون أن تفقد هويتها أي ما هو خاص بها. هذا الغير الخارجي، المنافس، والخصم، هو الذي يشكل الجزء الأساسي من المحيط، والذي يدخل معه الشخص الإنساني في علاقة تفاعلية، وصراعية واحتوائية، وتدميرية، قصد إثبات الذات وإغناء الهوية وصلها.

³⁴- Ibid. p. 21.

³⁵- Joseph Nuttin, La structure de la personnalité, Paris, PUF, 1975, 4^e édition, p. 6.

³⁶- ibid, pp. 242-243.

³⁷- Jacques Ardoino, l'Altération, Article in: L'Encyclopédie philosophique Universelle, T.A. Les notions philosophiques, Paris, PUF, 1994.

5- أهمية اللاوعي وضرورة التأويل:

كما جعلتنا هذه الانتقادات نقدر أهمية الاكتشاف الفرويدي: اللاوعي، لدرجة دفعت ألبورت إلى اعتبار فرويد بهذا الاكتشاف أهم مساهم في علم النفس منذ أرسطو الذي وضع قواعد علم نفس الحياة العقلية الواعية. فقد نجح فرويد قبل أي كاتب آخر في التاريخ، في إثارة الاهتمام بالسيرورة الخفية التي تقولب modeler شخصياتنا دون أن نعي بذلك. وبفضل فرويد أصبح حتى الإنسان العادي يعرف الآن أننا قد نسلك أحياناً بكيفيات نجهل خلفياتها، وأنا نخبئ مشاعر لاواعية تفاجئنا حقاً إذا عرفناها³⁸.

حسب فرويد، يقوم اللاوعي بمهمة مزدوجة: من جهة يخزن كل الذكريات المنسية والمكبوتة، ومن جهة ثانية يحتوي على آلة من الطاقات الجهرية، والدوافع الغريزية خاصة الجنسية والعدوانية "واللاوعي كمنطقة حميمية للشخصية تحتوي إذن على كل ما لا يمكن التعبير عنه بشكل ملائم داخل بنيات نمطية مكونة من تعاقبات وشكليات اجتماعية. داخل هذه الحميمية المتجددة باستمرار يجد سر وغنى الشخصية مصدرهما وينبوعهما اللذين لا ينضبان"³⁹. والسؤال الذي يطرح الآن هو: ما السبيل إلى الدخول إلى اللاوعي؟ إنه التأويل.

يرى لودفيج بنسفانجر أنّ "اللاوعي" كظاهرة" نفسية بالمعنى الفرودي لا يقدم نفسه للعيان إلا عبر "حركته" على سلوكيات ما أو عبر مخلفاته أو في ارتباطه ببعض الأفعال النفسية الواعية*؛ وذلك سواء تعلق الأمر بالتداعيات الحرة، أو بأعراض المرض، أو بالأحلام أو بالأفعال الخاطئة "Actes manqués"⁴⁰. أي أنّ الظواهر المُدرّكة -الظاهرة- ينبغي أن تتمحي وراء التطلعات والنوايا والنزعات المفترضة، وينبغي أن يتم الاستنباط منها والتخمين والاستنتاج وفي كلمة واحدة: ينبغي تأويلها.

ما المقصود بالتأويل؟

³⁸- Gordon W. Allport, opt. Cit, p: 135.

³⁹- Joseph Nuttin, opt. Cit. p: 222.

* يمكن الاطلاع على نظير هذا النقد في كتاب "الفيينومينولوجيا" لجان فرانسوا ليوطارد، والذي أشرنا إليه في مؤلفنا "مدخل إلى تاريخ علم النفس المعاصر - رؤية فيينومينولوجية تاريخية".

⁴⁰- Ludwig Binswanger, opt. Cit., p: 246.

"هو أن نشير إلى معنى، لأنّ المظاهر النفسية تحتوي على معنى، والمعنى هو الدلالة، والقصد، والنزعة والموقف؛ المتضمنة في سلسلة من الترابطات النفسية"⁴¹.

إنّ تأويل المظاهر النفسية بالإشارة إلى المعنى الذي تتضمنه هو الذي يوصلنا إلى اللاوعي، فهذا الأخير بما هو كذلك لا يمكن أبداً أن يعرف بالتجربة المباشرة، إنه دائماً يختفي وراء قناع ما.

يوجد التأويل في قلب المذهب والتقنية الفرويديين، ويمكن اعتبار التحليل النفسي بمثابة توضيح للمعنى الكامن في مادة ما. ومن المعروف أنّ الانتقال من المعنى الظاهر إلى المعنى الكامن يقوم على الكشف عن الدلالة، وعلى نقل الرمز إلى سجل آخر، توفر له النظرية المفاهيم وقوانين الربط. ومن هنا يكون كل عمل تأويلي متصل بهرمينوطيقا (نظرية للتأويل، علم للدلالات) جدّ خاصة كما بيّن ذلك ريكور⁴².

نستنتج أنّ أهمية المحيط الطبيعي والاجتماعي بكل أبعاده ضرورية لفهم الشخصية الإنسانية كبناء دينامي تتدخل فيه مكونات واعية ولا واعية، ومكونات اجتماعية وواقعية كما نستنتج أهمية مكون اللاوعي في الشخصية الإنسانية وما يقوم به هذا المكون من دور في التصرفات الإنسانية. وكيف يطبع بطابعه الخفي وغير المعقلن بعض أفعال الوعي، الأمر الذي يتطلب التأويل.

ليس أحسن من الاختبارات الإسقاطية للكشف عن الجوانب اللاواعية في شخصية الكائن الإنساني. "في ماهيتها"، تعتبر التقنية الإسقاطية منهجاً لدراسة الشخصية تقوم على مواجهة الشخص مع وضعية يجيب عنها تبعاً للمعنى الذي تحدّثه لديه تلك الوضعية وتبعاً لما تحدّثه من إحساس لديه أثناء تلك الإجابة"⁴³.

إنّ التقنيات الإسقاطية في أصلها قد خرجت من ذلك الالتقاء بين علم النفس البنائي والتحليل النفسي. ومن المعلوم أنّ مصطلح "الإسقاط" قد استعمل لأول مرة من لدن فرويد ليشير به إلى "ميكانيزم دفاعي ضد القلق. وفي هذا المعنى يقوم الإسقاط على إسناد نزعات الفرد الخاصة ورغباته ومشاعره إلى الغير، من خلال ميكانيزم للحماية ويجعل الفرد غير واع بالظواهر التي يعتبرها غير مرغوب فيها"⁴⁴.

⁴¹- Sigmund Freud, Introduction à la psychanalyse, quatrième leçon, 55, cité in, Ludwig Binswanger, ibid, p: 244.

⁴²- Roger Mucchielli, opt. Cit. pp: 110-111.

⁴³- P. Pichot et J. Persem les tests projectifs, la revue du praticien (Journal d'enseignement post-universitaire), Tome XXIII, N 23, 21 Avril 1973, pp: 2075-2084.

⁴⁴- Ibid.

يصعب حصر كل الاختبارات الإسقاطية الآن لعددتها الوفير - مع أنّ لاورنس فرانك الذي قدّم أول تقرير منظم عنها سنة 1939 يحصر أهمها وأكثرها كلاسيكية في ثلاثة: اختبار الترابط بين الكلمات ليونج (1904)، واختبار الروزشاخ (1921)، واختبار تفهم الموضوع (1935) - إلا أنّ ما يجمعها هو الكشف عن الخصائص اللاواعية في استجابات المفحوصين، من خلال تقنية التأويل لتلك الإجابات "لتأويل نتائج اختبار إسقاطي في الشخصية يحتاج المطبق وعالم النفس والطبيب ضرورة إلى استعمال مجموعة من المفاهيم التي تحكمها قوانين واضحة للنظرية في الشخصية، متوافقة مع المشاكل المطروحة، وكذلك مع المعطيات الثقافية"⁴⁵.

يضعنا هذا العرض للنظرية التحليلية النفسية، في شكلها المجدد وفي تقنياتها للكشف عن اللاوعي، أمام خلفية نظرية متوازنة تراعي في الآن نفسه الجوانب الواعية والجوانب اللاواعية من الشخصية، وأمام وعي منهجي عند تناول الشخصية بالدراسة.

⁴⁵ - ibid.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com